النضال ضد الوجود الاستعماري فيها ، من غير ان يغفل بقية الاقطار العربية . وهو كما يقول في البيان الذي اقتبسنا منه آنفا « ان مصلحة الاقطار العربية هي واحدة ، فلا ينظر الى دولة اجنبية في قطر عربي نظرة صداقة اذا كانت هذه الدولة تسيء الى قطر عربي آخر وتنتقص من حقوقه »[٢] . والحزب يعتقد ان نظرته هذه لوحدة المصلحة العربية قد ميزته عن الاحزاب الاخرى كافة ، وبهذا يتميز البعث بخاصة عن الحزب القومي السوري ، الذي كان يرى في وحدة سوريا نهاية المطاف ، وهذا ما يفصح عنه بيان آخر يقول « ان حزبنا هو حزب عربي بمعنى لم يتخذه اي حزب آخر ، فهو لا يكتفي باقرار الفكرة العربية ، وانما يسعى في واقعه ، عدا عن فكرته الى ان يكون الحزب العربي الشامل المنتشر في كل الاقطار العربية والذي يعالج المشاكل العربية ككل لا يتجزأ »[٣] . ومن هذا المنظور يأتي تناول الحزب المبكر لقضية فلسطين ، فهو يطالب بريطانيا بالغاء وعد بلفور ، وبالانسحاب من فلسطين ، ومنحها الاستقلال على ما يطالب به من استقلال لبقية الاقطار العربية ، وخاصة السورية منها ، موجها مطالبته ضد بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين على حد سواء . وهو يقارن بين الاستعمارين ، ليجد انه اذا كانت جريمة انكلترا في فلسطين بصورة خاصة جريمة تاريخية ، فان سياسة فرنسا في البلدان العربية التي تحتلها تظهر « بأفظع اشكال الاذلال والامتهان [وهي] ترمي الى افناء العرب وتحويل ارضهم بتراثها المجيد وخيراتها العميقة ارضا فرنسية صرفة »[٤] .

نستخلص من هذا ان حزب البعث ، بالرغم من الاهمية التي اولاها لقضية فلسطين في اوائل الاربعينات ، كان ينظر اليها من خلال نظرته الشمولية لاستقلال البلاد العربية عن الاستعمار ، ولا يعتبرها مسألة المسائل ، او القضية المركزية كما سيصبح شأنها فيما بعد .

يضاف الى هذا ان نظرته الى الدول الاستعمارية ، مع رفضه لاحتلالها للبلاد العربية ، كانت متفاوتة بالنسبة لكل منها ، كما ان هذه النظرة كانت تتسم بمنطلقها الاخلاقي المغرق احيانا في اخلاقيته . ولذا نراه يتوجه الى بريطانيا والولايات المتحدة بالذات ، محاولا اقناعهما بالعدول عن الظلم والبغي ، بلهجة يمتزج فيها العتاب بالتهجم ، بينما يخص فرنسا وحدها بالتهجم ، ويعتبر استعمارها « أبشع » انواع الاستعمار . ويقول في احد بياناته « ان نظرة العرب الى فرنسا تختلف عن نظرتهم الى اية دولة استعمارية اخرى ، فللدول الاستعمارية مصالح دفعتها الى الاعتداء على حقوق العرب والحاق الاضرار بهم .... ولكن فرنسا تحمل للعرب حقدا موروثا » . وهو لهذا يرى ان « اعتداءاتها المجرمة المتعددة عليهم لا تصدر عن الطمع وابتغاء المصلحة فحسب [كما هو شأن الدول الاستعمارية الاخرى] بل تمتزج اعمق الامتزاج بروح الانتقام والتشفي » . كما انه يرى ان « المحرك الحقيقي لتلك السياسة كان دوما الكره العاطفي والتصميم النهائي على اعتبار العرب عدوا يجب ان يزول بالفرنسة او بالموت »[٥]

الا أن ارجاع اسباب الاستعمار الى « الكره العاطفي للعرب » ، و « التصميم النهائي على اعتبار العرب عدوا » ، أو رغبة فرنسا في « افناء العرب » ورغبة انكلترا في الاعتداء على سيادة العرب القومية قد اختفى في المراحل التالية ، وحل محله تحليل علمي لطبيعة الاستعمار وجوهره . ويلاحظ المتتبع ايضا أن النعوت والاوصاف التي كان البعث يرمي بها